علمية متنوعة ، كالمقارنة ما بين رسوم الاطفال المتأخرين والاطفال العاديين ، او لدراسة رسوم الاطفال المصابين بأمراض عقلية او نفسية ، او مضطربين نفسيا ، او استخدام رسوم الاطفال كأداة في ميدان علم النفس المخبري (الاكلينكي) ، لقياس ذكاء الاطفال ، او للمقارنة ما بين رسوم الاطفال من مجتمعات متقدمة واخرى من مجتمعات متخلفة. كذلك درست العلاقة ما بين الرسوم واللغة عند الاطفال . واهتم بعض الباحثين بدراسة رسوم الاطفال من جوانب جمالية وفنية كالتميز ما بين رسوم الموهوبين والمقلدين او الاهتمام بالفروق بين رسوم الاطفال ، الذكور والاناث . ومن جهة اخرى يمكن التمييز بين الجهود العلمية التي انصبت في نطاق بحث ودراسة رسوم الاطفال من خلال اعتبارات مختلفة اخرى ، كاعتماد بعض هذه الجهود على متابعة دراسة طفل واحد ، او الاهتمام على وجه التخصيص بموضوعات رسوم الاطفال، او اعتبار رسم الجسم الانساني موضوعا لدراسة النمو العام عند الطفل .

مهما يكن طابع هذه التجارب واهتماماتها ، ومهما كانت المناهج واساليب البحث التي استخدمها هؤلاء الدارسون متنوعة ومتباينة ، فانها قد كشفت في مجملها عن حقيقة اساسية وهي ان للاطفال فنا خاصا بهم ، فنا متميزا بقواعد وقوانين وانماط شكلية تعطي رسومهم هذه اللغة الخاصة . كما دللت هذه التجارب والدراسات ، عن امكانات واسعة لاستقراء هذه الرسوم من عدة جوانب ، فهي تتضمن طبيعة جمالية خاصة ، وتكشف عن جوانب ذاتية من شخصية الطفل ، وتبين مدى التأثير الثقافي والاجتماعي السائد وتعكس هذه الرسوم في مجموعها ، انفعالات ومواقف الاطفال ضمن مناخ اجتماعي معين . كذلك تكتسب رسوم الاطفال ، اذا اخذت كل منها على حدة ، وفي ظروف متقنة اهمية خاصة ، من حيث كونها تعبر عن حالة الطفل الذهنية والنفسية والجسمية(١٦).

(٢)

لماذا كانت هذه التجربة ؟ ما هو الهدف الكامن وراءها ؟ واين تقع تجربتنا هذه ، من الارث الواسع الذي كرسته التجارب والابحاث والاهتمامات العالمية منذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر وحتى الان ؟ لنقرر منذ البدء ، ان تجربتنا مع اطفال مخيم « البقعة » ، لم تكن اكثر من عملية استكشاف مبهمة ، انطلقت من افتراض عام :

اذا كان الاطفال يستخدمون لغة واحدة ويعبرون بأساليب متشابهة في رسومهم يخلفونها عادة في دفاترهم ، او على الجدران ، او على الارض ، فان هذه التخطيطات والرموز والاشكال تتمايز فيما بينها على مستويين اساسيين : الاول : هو ان كل طفل يتسم بفرديته الخاصة ، في ظروف نمو طبيعي (اي ان الطفل ليس مصابا بمرض جسماني او نفسي) ، تفصح عن نفسها من خلال هذه الرسوم ، كاشفة عن رؤياه للاشياء ، والحياة ، والتجربة . متضمنة شخصيته ومواقفه الوجدانية والذهنية مما حوله . الثاني : ان مجموع الاطفال، في وسط اجتماعي محدد ، بشروط اقتصادية ، وثقافية واجتماعية معينة ، تحكمهم تجارب حياتية وانفعالات ومؤثرات ذات طبيعة عامة مشتركة ، لا يلبث ان تتشكل تعابيرهم ورسومهم من خلال معايشتهم للواقع القائم ، وتكتسب طابعا جماعيا، وتعطي فردية الطفل بعدها الاجتماعي وتطبع رسومه برموز البيئة والثقافة والحياة الاجتماعية ، وتعكس ، هذا الواقع ، بلغة الخيال والحلم ، حيث يعاد تركيب هذا الواقع ، او يختصر ، او يضخم ، او يرفض ، او يزاوج ما بين الحساحه ورفض الطفل له . ومن ثم ، فان اي محاولة لاستكشاف رؤيا اطفال المخيمات عشية الحرب من خلال رسومهم ، لا بد ان تكشف بصورة حية ، ونموذجية، عن معاناة الاطفال لواقعهم كما عاشوه، والذي ما زال يردد أصداءه في وجدانهم وذاكرتهم. وكان ان بدأت المحاولة، من خلال مخيم البقعة، الذي أقيم على أثر الحرب، نظرا للتجربة الانسانية الخاصة التي عاشها سكان المخيم ، فقد خضعوا للاضطهاد والتشرد اكثر من مرة، كما عانت غالبيتهم من اوضاع معيشية واجتماعية وثقافية غاية في البؤس . لذلك كان اللجوء الى اطفال هذا المخيم يعني استشفاف ابعاد كافة هذه المعطيات على ضوء معاناتهم لها .

لقد حكمنا هذا التصور العام : لا بد ان نجد في رسوم اطفال المخيم ، ما هو مميز ومختلف عن رسوم الاطفال الاخرين في كثير من بقاع عالمنا (أي مختلف ومميز بسبب معاناته لتجربة خاصة) ، بل عن رسوم اطفال آخرين في عمان نفسها .

لئن كان هذا التصور ، مبهما ، غير محدد بحيثيات وتفاصيل ، فلأن اكثر ما يمكن افتراضه في طابع